

التفسير المختصر - سورة القصص (٢٨) - الدرس (١٨-١٨) : تفسير الآيات ٧٢-٧١ ، قل أرئتم إن جعل الله عليكم الليل سر마다 إلى يوم القيمة من إله غير الله يأتكم لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٥-٠٩-١٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علما، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه، واجعلنا من يسْتَمِعُونَ القول فَيَتَبَعُونَ أَحْسَنَهُ وَأَدْخِلُنَا بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ.

أيها الإخوة الكرام، يقول الله تعالى في الآية الواحدة والسبعين من سورة القصص:

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرَمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَّا هُنَّ اللَّهُ يَأْتِيْكُمْ بِضِيَاءِ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرَمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَّا هُنَّ اللَّهُ يَأْتِيْكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾

(سورة القصص)

الحقيقة هذه الآية تمثل منهجاً في التفكير، هناك أمر وهناك أمر، لو تعرفت إلى الأمر، لا تتدفع إلى تطبيقه، أما إذا تعرفت إلى الأمر تقني في تطبيق الأمر، إن لم تعرف إلى الأمر تقنت في التقلّت من أمره، قد يضع الإنسان في جيشه حبات من الثوم فإذا دخل وقت صلاة الجمعة ألقى في فمه حبة، فصار معذوراً؛ عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في غزوة خيبر:

((من أكل من هذه الشجرة يعني الثوم فلما يقربن مسجداً))

[رواوه البخاري]

إن عرفت الأمر ولم تعرف الأمر تقنت في التقلّت من أمره وإن عرفت الأمر حقيقة تقانبت في تطبيق أمره فهناك آيات كثيرة جداً الهدف منها أن تعرف الأمر، والأمر هو الله عز وجل، قال تعالى:

﴿ لَا تُدْرِكُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَيْرُ (١٠٣) ﴾

[سورة الأنعام]

السمع والبصر، والشم والذوق واللمس؛ هذه حواس تتفع في الأشياء المادية والمحسوسة أما في ما غاب عنك وبقيت آثاره؛ غابت عنك عينه وبقيت آثاره لا ينفعك إلا عقلك، ولذلك العقول تصل إلى الله والحواس لا تدركه، إذاً نحن من أجل أن نعرف الله لا بد من أن نفكّر في مخلوقاته، والتفكّر في مخلوقات الله يحتاج إلى منهج في التفكير وهذه الآية تمثل أحد المناهج الكبّرى، الشيء وخلاف ما هو عليه تصور أن الأرض لا تدور، يصبح نصفها ليل سرمدي، والنصف الآخر

نهار سَرْمَدي طبِعًا اللَّيل السَّرْمَدي الحرارة مائتان وسبعين تحت الصِّفَر، والحياة تستُحْيِل عليها، والنَّهار السَّرْمَدي معناه ثلاثة وخمسون فوق الصِّفَر، والحياة مُسْتَحْيِلة، قال تعالى

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾

[سورة القصص]

إذا وقفَتُ الأرض فجأةً، ووضعوا مؤتمر عالمي بِتَسْبِيرِ الأرض، فهل تدور؟ لو مُعْظَمُ دُولِ العالم اتَّخَذَ قرارات حاسمة على أن تدور الأرض، فهل تدور؟ لو وقفَتُ فجأةً يصبح نصف الكُرة نهار سَرْمَدي ونصف الكُرة لَيْل سَرْمَدي، وبعد حينٍ تَنْعَمُ الحياة في النِّصْقَيْنِ ويُمْوتُ الْخَلْقُ جمِيعاً.

قال تعالى:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِيَضَاءٍ﴾

[سورة القصص]

الحقيقة في الآية لَفْتَةً، قال تعالى:

﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (٧١)

[سورة القصص]

وفي قوله تعالى:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِلَيْلٍ﴾

﴿تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٧٢)

[سورة القصص]

لماذا جاء هناك أَفَلَا تسمعون وهنا أَفَلَا تُبصرون؟ الله عز وجل من تَكْرِيمِ الله للإِنْسَانِ أَعْطَاهُ حواس خَمْسٍ، ففي النَّهار الحاسة الأولى للعين، أما في اللَّيْلِ الحاسة الأولى للسمع، يقول لك: أَسْمَعْ شَيْئاً ! الحقيقة أنَّ حاسة البصر تنتهي عند الحواجز، أما حاسة السمع تتجاوز الحواجز، فالواحد مِنَّا يكون جالساً في غرفة الجلوس فعَيْنُهُ تتفَحَّصُ مَنْ في الغرفة، أما لو سَمِعَ حركة بالغرفة الأخرى، وهو لا يعلم في البيت أحداً فإنه يقول: فلان قد جاء ! ودخل ولم نشعر به، فما الذي أَخْبَرَهُ ؟ الأَذْنُ، ففي النَّهار الحاسة الأولى هي البصر، وفي اللَّيْلِ الحاسة الأولى السمع فالله تعالى قال:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِضَيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (٧١)
﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٧٢)

[سورة القصص]

فالنَّهار معه البصر، واللَّيْل معه السُّمْعُ، وهذا من حِكْمَةِ الله عز وجل فهذا مَنْهَاجٌ، وأَنْتَ بِكُلِّ قَضَيَّةٍ إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تعرِفَ مَنْهَاجَ الله عز وجل غيرَه، فمثلاً الفواكه على الأشجار، أما المحاصيل على الأرض فالبطيخ فاكهة، ولكنه لو كان مُعلقاً على الأرض كانت مُشكلاً كبيرةً إِنْ وَقَعَتْ هذه

الشّمرة تتشطّر، وإن وقعت على رأس شخصٍ قُتِلَهُ ولأنَّ حجمها كبير جُعلَت على الأرض، فمن الذي قرر ذلك ؟ الله عز وجل، وممكِن كل شيء أمامك تقىُّهُ على هذا المنهج فمثلاً بالأنف هناك شعر، ولكن بالفم لا يوجد شعر، الأنف فيه سطوح متداخلة، تحوي أوعية تتغيّر بخاصة تتفرد بها، فهذه الأوعية فيها عضلات تتسع، فإذا توسيع جاءت كمية دم كبيرة إلى الأنف، فالإنسان إذا برد يحمر أنفه، والأنف مهيأ أنّ أوعيته الدموية فيها عضلات موسعة فكمية الدم هذه التي تأتي إلى الأنف من أجل تسخين الهواء البارد الذي سيدخل إلى الرئتين، ثم إنّ هذه السطوح عليها مادة مخاطية فإذا دخل الغبار فإنه يعلق بهذه المادة، فالإنسان إذا نظر بيته، وبعد التنظيف يجد ما يدخل أنفه أسوداً، فالسطح هذه أخذت هذه المواد العالقة بالهواء، وإذا تمكنت ذرة غبار أن تتشي في الفراغات بين السطوح المتداخلة تأخذها الشّعرة، فالله عز وجل أعطانا منهج، وما عليك إلا أن تصوّر الشيء على ما هو خلاف عليه تعرّف قيمته، فالمفصل لو لم يكن لأكلت كالقط، فانت يمكن أن تقىس جسمك وحواسك وأعضائك وعظامك، تجد كُلّ شيء في أعلى درجات الحكمة، وهذا منهج، وأحد مناهج التفكير في خلق السماوات والأرض أن تصوّر الشيء على خلاف ما هو عليه، فالمرأة عندها بويضات محدودة، لو لم تكن محدودة لأمكنها أن تلد و عمرها اثنان وثمانون سنة !! فهذه ليس لها إمكانية تربية الطفل، فالحكمة أرادها الله المرأة بويضاتها محدودة تنتهي بالخمسينات أو الأربعينات ؛ يسمى سن اليأس أما الحوينات عند الرجل غير محدودة ويمكن أن ينجُب بالستين، فمن الذي قرر أن الرجل حوياته غير محدودة ؟ الله جل جلاله، تصوّر بالعكس ؛ إنسان بالخمسين لا يستطيع أن ينجُب ولا يزال قوياً والمرأة بالثمانين وتُنجِب !! مشكلة كبيرة، والإنسان يخف شعره وقد يذهب كله، ولكن ليس في النساء امرأة دون شعر، وهذه لِحْكة أرادها الله عز وجل، وبطحاح الطفل الصغير مادة حديد تكيفه عامين، فالله أودع فيه هذه المادة لأنّ الحليب ليس فيه حديد، ومن أجل الدم والصوص الذي في البيضة كيف يخرج ؟ إذ هو محاصر، يتمو على منقاره نتوء مدبه كالإبرة تماماً، يكسر به البيضة، فإذا خرج إلى خارج البيضة تلاشى هذا النتوء وتلاشى، فمن الذي يجعل هذا النتوء ؟ ومن الذي يجعله يتلاشى ؟ فالآلية هذه منهج، والعلم حرف والتكرار ألف، فلو أنّ الماء برّدته ينكّش مثل أيّ عنصر بالأرض لانتهت الحياة، تتجدد البحار، ويقل حجمها، وتزداد كثافتها، وتغوص في أعماق المياه، وتتأتي طبقة أخرى تتجدد وتغوص، وبعد حين تصبح البحار كلّها متجددة وينعدم التبخّر، وينعدم المطر، ويموت النبات والحيوان، وينتهي الإنسان ! فمن الذي جعل الماء بالدرجة زائد أربعة يزيد حجمه، وبهذه الطريقة حولت الصخور إلى تربة زراعية، فالخاصة هذه هي التي تجعل الصخر تربة زراعية، يتغذّل الماء ويتجدد ويُفكّك التربة، وهذا إذا منهج تقدير دقيق جداً، قال تعالى:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيْكُمْ بِضِيَاءِ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيْكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبَصِّرُونَ (٧٢)﴾

[سورة القصص]

هناك منهج ثانٍ، وهو الشيء وعدمه فالمنهج الأول ، الشيء وما هو خلاف عليه، قال تعالى :

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَأْوِكُمْ غَورًا فَمَنْ يَأْتِيْكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (٣٠)﴾

[سورة الملك]

الله جل جلاله، فلو أن الشام أصبحت بلا ماء، لن تجد أحداً يسكنها المحل الذي ثمن المتر فيه مائة ألف يصبح خمسة آلاف.

المنهج الثالث ؛ انظر إلى طفل صغير ؛ إلى جبينه وشكل وجهه وعيونيه وأنفه، وإلى أنفه وفمه، وإلى أسنانه، ويأكل، معنى ذلك أن له بلعوم ومعدة وبنكرياس، وأمعاء دقيقة وغليظة، وفتحة علوية وسفلى والقلب والرئتين والكليتان، فهذا المخلوق ما هو أصله ؟ نقطة من ماء مهين، تستجيبه إذا كان على ثيابك، وفي اللقاء الزوجي هناك خمسماة مليون حويث، والبؤيضة تتلاقح بحوين واحد، فهذا الطفل الذي أمامك لا يعرف أحد كيف تخلق سواك ؛ نقطة ماء أودعـتـ في رحم أمـهـ وأصـبـحـ كـاثـنـاـ بـأـيـدـيـ وـعـظـامـ، وـعـضـلـاتـ، وـطـبـقـةـ شـحـمـيـةـ وـأـخـرـىـ جـلـدـيـةـ وـلـحـمـ وـشـعـرـ، وـأـجـهـزـةـ دـقـيقـةـ، وـغـدـةـ نـخـامـيـةـ بـمـثـابـةـ مـلـكـةـ الـغـدـدـ، وـغـدـةـ كـظـرـيـةـ، وـعـقـدـ لـمـفـاوـيـةـ، شـيـءـ مـذـهـلـ ! إذا أصبحـ عندـنـاـ ثـلـاثـةـ مـنـاهـجـ ؛ـ الشـيـءـ وـأـصـلـهـ،ـ وـالـشـيـءـ وـخـلـافـ ماـ هوـ عـلـيـهـ،ـ وـالـشـيـءـ وـعـدـمـهـ،ـ فإذا أردـتـ أـنـ تـفـكـرـ فـيـ عـظـمـةـ اللهـ مـعـكـ هـذـهـ الـمـنـاهـجـ الـثـلـاثـةـ،ـ قالـ تـعـالـىـ :

﴿فَإِنَّهُ لَظُرْفُ الْإِنْسَانِ مِمَّ خَلَقَ (٥)﴾

[سورة الطارق]

هذه الشيء وأصله، والشيء وخلاف ما هو عليه، والشيء و عدمه.

أيها الإخوة، مرّة ثانية إذا عرفت الله حق المعرفة لقول الله :

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا فَبِضَطْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)﴾

[سورة الزمر]

إن عرفت الله معرفة تلقي به يستوي عنك التبر والترب، والألف مليون تحت قدمك إذا كانت فيها شبهاً، وإذا لم تعرف الله والله قد تبيع دينك بمائة ليرة، وبيبع الإنسان دينه بعرض من الدنيا قليل، فأنت إذا عرفت الأمر قبل الأمر تفانيت في تطبيق الأمر، وإن عرفت الأمر قبل الأمر تفنت في التقلت منه، وثلث القرآن آيات كونية من أجل أن تعرف الأمر، وتتدفع إلى تطبيق الأمر، ومن أجل أن يكون الله عز وجل هو كل شيء في حياته، أما إن لم يعرف الله فإنك تجده يمُن على الله بصلاته وصيامه !!! قال تعالى :

﴿يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلْ اللَّهُ يَمْنُنْ عَلَيْكُمْ أَنْ هَذَا كُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٧)

(سورة الحجرات)

والحمد لله رب العالمين